ولا شّك في أن اهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حداثته خطأ في التقويم – كما يرى الدكتور شوقي ضيف – ونؤيده في هذا الرأي ، إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة، والشعر الجيد جيد في كل زمان ومكان .

وعلى هذا النحو كان الشاعر العباسي يحوِّل الى نفسه نماذج الشعر القديم بخصائصها كلها ، يعينه في ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها سمعه وتحت بصره .

وشاركهم في ذلك بعض الشعراء على نحوماهو معروف عن أبي تمام ، ومجموعاته الشعرية التي انتخبها بذوقه من أشعار القدماء والمحدثين ،وفي مقدمتها ديوان الحماسة ، ولم يكتفِ اللغويون بما عرضوا من القصيد والرجز ، فقد وضعوا للشعراء أقيسة للغة في الاشتقاق والتصريف والنحو وموسيقى الشعر وعروضه .

ولا نبالغ اذا قلنا إن اللغويين هيؤوا للشاعر العباسي من العلم بالشعر القديم ما لم يكن يتهيأ لأصحابه أنفسهم ، فقد جمعوه لهم وكشفوا مادته من أطرافها جميعاً وأخذت تونق وتزدهر من جديد ، وهو ازدهار نفذ منه العباسيون الى اسلوب لهم حديث عُرِفَ باسم اسلوب المولدين ، وهو اسلوب قام على عتاد من القديم وعدّة من الذوق الحضري الجديد ، اسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقدماتها التصريفية والنحوية ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة ، بحيث تنفى عنه ألفاظ العامة المبتذلة كما تنفى ألفاظ البدو الحوشيّة ، وأشاعوا في هذا الأسلوب الألفاظ المنتخبة مع العذوبة والرشاقة حيناً ، والجزالة والرصانة حيناً آخر .

وبشار في طليعة مَن أرسوا هذا الاسلوب المولد الجديد ، واسلوبه يمتاز بالنصاعة والرصانة والصفاء والرونق . وتلاه جيل من الشعراء توزّعوا بين مَن يؤثرون الجزالة والفخامة وقوة البناء وضخامته مثل مسلم بن الوليد ، ومَن يؤثرون الليونة والسهولة مثل أبي العتاهية الذي عَمَّم ذلك في الشعر الرسمي : شعر المديح ، والشعر الشخصي : شعرالخمر والغزل ، وشعر الزهد والوعظ ، وكان معاصره أبو نواس يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة في الشعر الرسمي ، وفي بعض شعره الشخصي ، وكثيراً ما يعمد في الضرب الأخير الى السهولة المفرطة .

على أن الشعراء سرعان ما انصرفوا عن طريق أبي العتاهية مؤثرين طريق بشار وما انتهى اليه هذا الطريق عند مسلم من المتانة وقوّة البناء ورصانته ، وخلفه أبو تمام فأوفى بهذا الاسلوب الجزل الرصين على غايته من الفخامة والروعة . وبذلك ردّ الأسلوب المولد الى قوّة السبك وضخامة البناء .

لقد ظلّ الشعراء يحافظون بكل قوّة على الصياغة العربية في المفردات والتراكيب وقواعد الاعراب والتصريف ، وتأثر كثير من الشعراء في الثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية ، وكذلك تعمق كثير منهم الفلسفة اليونانية ، وقد بدا ذلك كله في أشعارهم من غير أن يخرجوا عن أصول الشعر الموروثة .

وقد ظل الشعر يمثل العصب في قلب المجتمع العباسي ، فكثر النظم وازداد عدد الشعراء زيادة لا نكاد نجد لها نظيراً في أي عصر آخر ، أمّا الأغراض لهذا الشعر فقد كانت هي نفسها في العصور التي سبقت هذا العصر ، أي ينظمون في موضوعات تقليدية ، وبذلك أبقوا للشعر العربي شخصيته الموروثة مع ملاءمتهم بين تلك الشخصية وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضّرة المرهفة ، وبذلك كان التواصل الوثيق مع الأنموذج القديم .

ونقف الآن على الأغراض التقليدية التي توسّعوا فيها وجدّدوا في جوانب منها :

المديح

المديح غرض قديم ومن أبرز أغراض الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، حظي بعناية فائقة من الشعراء والمتلقين ، فصار نصيبه القسم الأوفر من النتاج الشعري .

ومعروف أن الشاعر الجاهلي والاسلامي كان يرسم في ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التي تقدرها الجماعة مثل الكرم والشجاعة والسماحة والعفة وحماية الجار والعزم والمروءة والبأس والعدل وغيرها من الصفات ، وفي العصر الاسلامي أخذ الشعراء يضيفون عليها صفات مثالية تنتمي الى مثالية الدين الاسلامي مثل التقوى والورع والتواضع والوقار وخفض الجناح .

وقد جسم الشعراء هذه الصفات في الممدوحين تجسيماً قوياً ، حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كي يحتذوها ويحوزوا لانفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك أصبحت المدحة تبث في الأمة التربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة . وقد مضى الشعراء في مديح الخلفاء والولاة يضيفون الى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغي عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التي لا تصلح حياة الأمة بدونها ، من ذلك قول مروان بن أبي حفصة في مطلع قصيدة للمهدي :

أحيا أمير المؤمنين محمد سنن النبيّ : حرامها وحلالها

وقد يكون الخليفة سيء السلوك مثل الأمين ، ولكن الشعراء يمدحونه خليفة للمسلمين بهذه المثالية الكريمة نفسها ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وانما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات التي تطلبها الأمة في خليفتها وراعيها ، ولعله يثوب الى طريق الرشاد . وقد نمت من هذا المديح فروع الشعر السياسي ، الذي يقف فيه الشاعر مدافعاً عن حزب من الأحزاب في الحكم والخلافة .

ولم يصور الشعراء مثاليتنا الخلقية العامة في مدائحهم وكذلك مثاليتنا السياسية فحسب، بل صوروا أيضاً الأحداث التي وقعت في عصور الخلفاء ، ولا سيما الفتن والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولةمن الروم والترك ، وبذلك قامت قصيدة المديح في هذا العصر مقام الصحافة الحديثة ، فهي تسجل الأحداث التي عاصرها الشاعر والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء ، مما يعطيها قيمة بعيدة ، إذ تصبح وثائق تاريخية ، وكان أوّل من نفذ الى ذلك السيد الحميري ، فإنه حوّل أخبار الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) ومناقبه الى مدائح بديعة .

وربما كان أهم ماسجلته صحف المديح في هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين ، فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتحموه ، وكل شاعر يتفنن في رسم بطولة القائد الذي يمدحه رسماً يشعل الحماسة في نفوس جنوده ونفوس الشباب العربي ، وكان الرشيد والمأمون والمعتصم يقودون بأنفسهم الجيوش التي كانت تمحق البيزنطيين محقاً ، فتغنى الشعراء بانتصاراتهم على نحو ماهو معروف في بائية أبي تمام بفتح المعتصم لأنقرة وحرقه لعمورية ، وهي الى أن تكون ملحمة اقرب منها الى أن تكون قصيدة . وتكتظ كتب الأدب ودواوين الشعراء بتصويرهم لبسالة القواد جميعاً . فهو تاريخ كتب شعراً ، وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كي يرسموا هذه البطولات .

وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد الى وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشي ، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد ، وكثيراً ما يضمنها حكماً توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة . وذلك كلّه استبقاه الشاعر العباسي ، ولكن مع اضافات كثيرة ، حتى يلائم بينه وبين عصره . وهي اضافات تعبّر عن

الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي . وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أمّا الأطلال فلحبهم الداثر ، ومّا رحلة الصحراء فلرحلة الانسان في الحياة ، وقد استثمروا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق في أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد :

هلاّ بكيت ظعائناً وحمولا ترك الفؤاد فراقهم مخبولا
فإذا زجرتُ القلب زاد وجيبه وإذا حبست الدمع زاد همولا
واهاً لأيام الصّبا وزمانه لو كان أمتع بالمقام قليلا

وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة الى قصور الحاضرة المأنوسة ، وحينئذٍ كان لا يسترسل في وصف حنينه ، على شاكلة قول (أشجع السّلمي) في استهلال إحدى قصائده :

قصر عليه تحيّة وسلام نشرت عليه جمالها الأيّام

وعلى نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يبعث بنفوسهم ، استبقوا رحلة الصحراء، وتفننوا في وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة التي تكاد تتوقد توقداً .

وتحّول الشاعر العباسي في أحيان كثيرة من وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها الى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها البهيجة في الربيع ، مثل قول أبي تمام في مدح المعتصم بقصيدة استهلها بقوله :

رقّت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسّر

تمرمر : تموج لينا ونعومة ، الثرى : التراب ، ويريد به النبات ، يتكسّر : يتثنى .

وقد مضى يتحدث في اسهاب عن جمال الطبيعة في الربيع وكأنه يتخذ منه رمزاً لعصر المعتصم . واتخذوا احياناً من وصف السفن ورحلتها في الأنهار صورة مقابلة لرحلة البعير في الصحراء ، مثل قول بشار في احدى مدائحه للمهدي :

وعذراءَ لا تجري بلحمٍ ولا دم قليلة شكوى الأين ملجمة الدّبر
إذا ظعنت فيها الفلول تشخّصت بفرسانها لا في وعوث ولا وعر
تلاعب تيّار البحور وربّما رأيت نفوس القوم من جريها تجري

الأين : الإعياء ، الفلول : الجماعات ، وعوث : جمع وعث وهو المكان الشاق والصعب .

وجعلتهم موجة المجون الحادّة في العصر يصفون في مقدّمات مدائحهم الخمر أحياناً ، واستهلّ ذلك بشار ، وتوسع فيه مسلم وأبو نواس وأبو العتاهية سعة شديدة ، وعُنوا على نحو ما عُنِيَ الشاعر القديم ببثّ الحكم في قصائدهم ، وكان قد ترجم كثير من الحكم الفارسية والهندية واليونانية ، فأفادوا من ذلك كله ونثروه في تضاعيف مدائحهم ، مضيفين إليه كثيراً من تأمّلاتهم في الحياة والطباع ، من مثل قول أبي تمام في فضل المحسود ونقص الحسود :

وإذا أراد اللهُ نشرَ فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

العرف : الرائحة والشذا .

وهو كثير الحكم في مدائحه ، وقد صبّ فيها كثيراً من شكوى الزمن وخطوبه ، بحيث يعدّ مقدمة قوية لابن الرومي والمتنبي ، وهو يمزج شكواه بمغالبة عاتية للدهر ونوازله.

وعلى هذا النحو ازدهرت المدحة على لسان الشاعر العباسي ، لا بما رسم فيها من مثاليتنا الخلقية ، وسجّل من الأحداث ، وصور من البطولات العربية فحسب ، بل ايضاً بما تمثّل من العناصر القديمة وأذاع فيها من ملكاته وما أضافه اليها من عناصر جديدة استمدّها من بيئة الحضارية ومن نفسيته وملكاته العقلية . ودفعتهم دقتهم الذهنية الى أن يلائموا بين مدائحهم وممدوحيهم ، فإذا مدحوا الخلفاء نوّهوا بتقواهم وعدلهم في الرعيّة ، واذا مدحوا القوّاد أطالوا في وصف شجاعتهم ، واذا مدحوا الوزراء تحدّثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة والمغنين ، فلكل أوصافه التي تخصّه ، وهي أوصاف طلبوا فيها في مدائحهم كلّها الفكر الدقيق والتعبير الرشيق .

الهجاء

وإذا تركنا المديح الى الهجاء وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها في المديح الخالص ، إذ كان يتّصل بحياة الشعب والعامّه اتّصالاً لعله أدقّ من اتصال المديح ، وهي حياة لم يعد أساسها القبليّة كما كان الشأن في العصر الأُموي ، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلاّ أسراباً قليلة كانت تظهر من حين الى حين . ولكن إذا كان هذا الفن ضعف ، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء، وقد عمّت فيه روح جديدة إذ أخذوا يريشونه سهاماً مصمية . ويخيل الى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية في شخص إلا صّوروها ، وكأنّما يريدون أن يطهّروا المجتمع منها ، ولم يتورّعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء ، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادّة على نحو ما هو مشهور عند دعبل بن علي الخزاعي ، وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح . وقد تبارى الشعراء في رسم معانيه، تارة يخزون وخز الإبر ، وتارة يطعنون طعنات قاتلة ، من ذلك قول أبي تمّام مصوّراً غير شخص لا في موضع الغيرة من نسائه ، وإنما في الغيرة على طعامه ، حتّى لكأنّ كسر رغيفه كسر عظم من عظامه ، يقول :

صدّق أليّته إن قال مجتهداً ... لا والرغيف ، فذاك البرّ من قسمه
قد كان يعجبني لو أنّ غيرته ... على جرازقه كانت على حرمه
إن رمت قتلته فافتك بخبزته ... فإنّ موقعها من لحمه ودمه

أليّته : قسمه وحلفه : الجرازق : جمع جرذق وهو الرغيف .

واعتمد الهجاء معاني الاستخفاف والتهوين والتحقير والتصغير ، وقد استمد منها حمّاد عجرد كثيراً حين استطار الهجاء بينه وبين بشار من مثل قوله :

وأعمى يشبه القرد ... إذا ما عمي القرد
دنيءٌ لم يرح يوماً ... الى مجد ولم يغد
ولم يحضر مع الحضّا ... ر في خير ولم يبد
ولم يخش له ذمّ ... ولم يرج له حمد

ويقال إنّ بشاراً حين سمع هذه الأبيات بكى من شدّة إيلامها لنفسه ، فقال له قائل : أتبكي من هجاء حمّاد ؟ فقال : والله ما أبكي من هجائه ، ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه ، فيصفني ولا أصفه ، وأتاه من باب جديد ألهمته به الحضارة وما يأخذ به أهل الحاضرة أنفسهم من النظافة والتعطّر ، فوصفه بالقذارة والدنس في ابيات لعلّها كانت أشد إيلاماً وأوجع وخزاً لنفسه من الأبيات السابقة ، يقول :

نهاره أخبث من ليله ... ويومه أخبث من أمسه
وليس بالمقلع عن غيّه ... حتى يوارى في ثرى رمسه

ما خلق الله شبيهاً له — من جنّه طرّاً وإنسه
والله ما الخنزير في نتنه — بربعه في النتن أو خمسه
بل ريحه أطيب من ريحه — ومسّه ألين من مسّه
ووجهه أحسن من وجهه — ونفسه أنبل من نفسه
وعوده أكرم من عوده — وجنسه أكرم من جنسه

ثمّ ادّعى حمّاد على بشّار أنّه زنديق يؤمن بإلهي النور والظلمة قائلاً :

يابن نهيا رأس عليّ ثقيل — واحتمال الرؤوس خطب جليل
ادع غيري الى عبادة ربَّيـ — ـن فإنّي بواحد مشغول

ومكر به حمّاد فأشاع الأبيات لبشار في الناس وجعل فيها مكان (فإني بواحد مشغول) : (فإني عن واحد مشغول) ليثبت عليه الزندقة والكفر . ولما سمع بشّار ذلك قال : عرَّضني للقتل ، والله ما قلت إلاّ (فإني بواحد مشغول) .

ويكثر في هجاء بشّار وغيره هتك الأعراض ، وربما كان لشيوع المجون والفحش أثر في ذلك . وتشيع في كثير من قطع الهجاء روح السخرية المريرة ، وقد تشيع روح الفكاهة المضحكة ، على نحو ما يلقانا في هجاء أبي العتاهية لعبد الله بن معن وقد جعل منه فتاة تتزين لتلفت إليها الرجال .

ومعروف أن ابن الرومي هو أكبر شعراء الهجاء في العصر وأكثرهم سهاماً لمهجويه، وكان يعرف كيف يصب عليهم التصغير والحقارة والضّعة ، كقوله المشهور في وصف بخيل :

يقتّر عيسى على نفسه — وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره — تنفّس من منخر واحد

وكانت لابن الرومي حاسة تلتقط العيوب الجسدية وتستطيع تكبيرها على نحو ما يصنع أصحاب الصور الكاريكاتورية الهزلية .

ولم يكد يترك الشعراء خليفة ولا وزيراً ولا قاضياً ولا عالماً ولا مغنياً إلاّ كالوا له الهجاء كيلاً ، وأدّاهم تنافسهم الى أن يتبادلوا الهجاء . وأقرأ في أي ديوان من دواوين العصر فستجد دائماً هجاءً كثيراً على نحو ما يلقانا في ديوان البحتري مثلاً ، وقد اشتهر بهجائه بعض ممدوحيه حين يقلب لهم الدهر ظهر المجن ، مثل أحمد بن الخصيب ممدوحه ، فإنه حين نكبه المستعين أنشده قصيدة يحثّه فيها على مصادرة أمواله وسفك دمه ، وظل يسلقه بلسانه طويلاً.

وله قصائد كثيرة يمجد فيها المستعين وعهده ، حتّى إذا خلع وولّي التّرك بعده المعتز أصلاه ناراً حامية من هجائه في ثنايا مديحه للخليفة الجديد . ولم يكن البحتري حاذقاً في هذا الفن ، غير أنّه كان هناك كثيرون يتقنونه ، مثل علي بن بسّام ، وكان يتعرّض في هجائه كثيراً للخلفاء والوزراء ، وقلّما سلم أحد من لسانه .

الرثاء

والرثاء فن شعري قديم يعبّر عن اللوعة والحسرة عند الشاعر على من يفقده ، ونشط الشعراء العباسيون فيه نشاطاً واسعاً ، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلاّ وأبّنوه تأبيناً رائعاً ، وقد صوّروا في القوّاد بطولاتهم ومحنة الأمّة والجيوش في وفاتهم ، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعاً . وحقّاً رثاؤهم لهم يفيض بالحزن واللوعة ، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوّة وتمجيد بطولتهم تمجيداً يضرم الحمية في نفوس الشباب . وكان يحدث أن يخرّ بطل صريعاً في بعض الميادين ، حينئذٍ ينظم فيه الشعراء مراثي حماسيّة تؤجج لهيب

الحفيظة في القلوب وتدفع الى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذبّاً عن حرمات الوطن ، ومن خير ما يمثّل ذلك مراثي أبي تمام في محمد بن حميد الطوسي الطائي ، فإنّه أوقع ببابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعاً ورعباً ، وعندما قتل في آخر وقعة له معهم حزنت الأمة حزناً عميقاً لموته ، وانبرى أبو تمّام يرثيه مراثي رائعة تصوّر جلده في القتال وصبره حتّى الموت ، على نحو ما يلقانا في مرثيته العينيّة التي استهلّها استهلالاً بديعاً بقوله :

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

ومن الأبطال الذين بكاهم الشعراء منصور بن زياد ، وقد أبلى لعهد الرشيد في القضاء على ثورة بالقيروان ، ووافاه القدر ، فرثاه عبد الله بن أيوب التّيميّ بقصيدة بديعة يقول في تضاعيفها :

أمّا القبور فإنهنّ أوانس بجوار قبرك والديار قبور

والناس مأتمهم عليه واحد في كلّ دار رنّة وزفير

ولعّل بطلاً لم تذرف دموع الشعراء عليه كما ذرفت على يزيد بن مزيد الذي فتك بخوارج الموصل فتكة لم تقم بعدها لهم قائمة ، وفي تأبينه يقول منصور النّمريّ :

وإن تك أفنته اللّيالي وأوشكت فإن له ذكراً سيفني اللّياليا

وواضح ما في هذه الأشعار من دقة التفكير وبعد الخيال ، ويلقانا ذلك دائماً في تأبيناته ، إذ كانوا يتنافسون في استنباط المعاني النادرة ، ومن طريف ما لمسلم بن الوليد من هذه المعاني قوله في رثاء شخص:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّه فطيب تراب القبر دلّ على القبر

وكان الشاعر القديم كثيراً ما يفزع الى العزاء بالأمم السالفة والقرون الخالية وأن الموت كأس دائر يتجرّع غصصه الناس جميعاً ، فردّد ذلك الشاعر العباسي في مراثيه وأخذ يضيف اليه من فكره الخصب تأمّلات في حقائق الموت وسنن الوجود .

وشاع في هذا العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء ، بكاءً يفجر الحزن في النفس ، لما يصوّر من شقاء الأصدقاء بموت رفاقهم وكيف يصطلون بنار الفراق المحرقة ، من مثل قول بشار في ندب أحد أصدقائه من الزنادقة :

اشرب على تلف الأحبّه إنّنا جزر المنيّة ظاعنين وخفّضا

ويلي عليه وويلتي من بينه كان المحبّ وكنت حبًّا فانقضى

قد ذقت ألفته وذقت فراقه فوجدته ذا عسلاً وذا جمر الغضا

جزر : جمع جزور وهو البعير الذبيح ، ظاعنين : سائرين ، خفضا : جمع خافض وهو المقيم، الغضا : من شجر البادية .

وكان اخوتهم وأبناؤهم يموتون تحت أعينهم فتدور بهم الأرض ويبكون بدموع غزار ، وينفّسون عن أنفسهم بأبيات تصوّر الحزن المقيم في قلوبهم لا يبرح ، من مثل قول العتبي في ابن له اختطفه الموت بعد أبناء آخرين ، وقد مات في ريعان شبابه :

وقاسمني دهري بنيّ بشطره فلمّا تقضّى شطره عاث في شطري

ولكن قبل ذلك كله لا ننسى رثاء الشعراء للخلفاء ، فحين قتل المتوكل بكاه البحتري بكاءً حاراً بقوله :

محلّ على القاطول أخلق داثره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

حرامٌ عليّ الرّاح بعدك أو أرى دماً بدم يجري على الأرض مائره

مائره : سائله

وعلى نحو ما تفجّعوا على أبنائهم وأخوتهم تفجّعوا على زوجاتهم تفجّعاً كله عطف وبر ورحمة ، ولابن الزيّات مراث مختلفة لزوجته ، توضح من بعض الوجوه ثراء الفكر العباسي بالخواطر وقدرته على تحليلها وتمثيل أحزانه وحزن طفله الذي افتقد عطف الأم وحنانها من مثل قوله :

ألا مَن رأى الطفل المفارق أمّه ... بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كلّ أمّ وابنها غير أمّه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجنّه ... بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحياني إن بكيت فإنّما ... أداوي بهذا الدمع ما تريان
وهبني عزمت الصبر عنها لأنني ... جليد فمن بالصبر لابن ثمان

الكرى : النوم ، تبتدران: تسحان وتهملان بالدموع ، تجنّه : تلفه وتشتمل عليه ، لا تلحياني : لا تلوماني .

وظلّت المآتم قائمة على شهداء الشيعة في العصر والعصور السابقة منذ أن أستشهد الامام علي (عليه السلام) ، فهم ينوحون عليهم نواحاً حاراً ، ودموعهم لا ترقأ ولا تجف .

وبكى الشعراء البرامكة طويلاً حين نكبهم الرشيد ، من مثل قول سلم الخاسر :

خوت أنجم الجدوى وشلّت يد النّدى ... وغاضت بحار الجود بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبناء برمك ... بها يعرف الحادي طريق المسالك

خوت : سقطت ، الجدوى : العطاء ، الندى : الكرم .

وظهرت ضروب كثيرة في الرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق ، وكان الجيش الذي أحاط ببغداد قبل مقتل الأمين رماها بالمجانيق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الأحياء ، وعمّ فيها نهب الأموال وقتل الأبرياء ، مما جعل الكثير من الشعراء يبكونها وقد غمرهم الحزن والأسى ، من مثل قول بعضهم :

أَلا ابك لإحراق وهدم منازل ... وقتل وإنهاب اللّهى والذخائر
وإبراز ربّات الخدور حواسراً ... خرجن بلا خمر ولا بمآزر
كأن لم تكن بغداد أحسن منظراً ... وملهىً رأته عين لاهٍ وناظر

ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثي الطير الصادح من مثل القمريّ والحيوانات المستأنسة ، ومن المراثي الجديدة الموضوع مرثية محمد بن يسير لبستان له عاثت فيه شاة أفلتت لأحد جيرانه ، ودخلت البيت، فعاثت ببعض صحفه وقراطيسه ، وفيها يندب روعة هذا البستان قبل أن تعبث به ضارعاً الى ربّه بالشكوى من هذه الشاة وأن ينزل بها عقاب أليم .

الفخر

وظلت للفخر حيويته القديمة ، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلي ، على أنّ أسراباً منه قد بقيت عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم أبو نواس ، إذ كان يتعصب لمواليه من بني سعد العشيرة القحطانيين ، وينظم في ذلك أشعاراً كثيرة ، ومثله كان دعبل بن علي الخزاعي، وقد ردَّ على مذَهَّبة الكميت التي تشيّع فيها للنزاريين على القحطانيين رداً عنيفاً ، وكان بشار يتعصب في عصر بني أُميّة لمواليه القيسيين تعصباً حاداً ، حتّى اذا نجحت الثورة العباسيّة أظهر ما كان يستره من كره الاسلام والعرب ، وأخذ يعنّف بهم عنفاً شديداً ، مصوّراً

البغض الذي كان يحرق كبده ، وبقيت من ذلك بقية عند ابن المعتز ، إذ نراه يفخر طويلاً على بني عمومته العلويين ، وهو فخر سياسي يدور حول الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين، وربما كان أروع من هذا الفخر عنده فخره العام الذي يخلطه بشكواه ، والذي يتحدث فيه عن حبّه مقدّماً لبعض صواحبه فضائله من الشجاعة والبأس والكرم الفيّاض والوفاء ، ومن ذلك قوله :

لا أشرب الماء إلاّ وهو منجرد ... من القذى ولغيري الشوب والرّنق

عزمي حسام وقلبي لا يخالفه ... إذا تخاصم عزم المرء والفرق

الشوب : الماء المخلوط ، الرَّنق : الكدر ، والفرق : الخوف .

والجديد في الفخر لهذا العصر أن كثيراً من الشعراء صدروا في فخرهم عن شعور طاغ بالمروءة والكرم والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلَّم الخزاعي :

وإني لذو حلم على أن سورتي ... إذا هزّني قوم حميت بها عرضي

وإني لأجزي بالكرامة أهلها ... وبالحقد حقداً في الشدائد والخفض

السورة : السطوة وشدة الغضب .

الغزل

غرض شعري تقليدي جميل ومحبب الى النفس الانسانية ، تُصور فيه الأشواق واللواعج للمحبين ، وقد كثر النظم فيه في هذا العصر كثرة مفرطة ، حتى ليمكن أن يقال إن الشعراء جميعاً عنوا به ، وهي عناية أعدته لكي يزدهر ازدهاراً واسعاً ، إذ تداوله أفذاذ الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد في المعاني القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة .

وقد مضى الغزل يجري في التيارين نفسهما اللذين اندفع فيهما منذ عصر بني أُميّة ، ونقصد بهما تياري الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر حدّة وعنفاً ، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان من مختلف الجنسيات اللواتي كنّ يشعن التحلل الخلقي ، والشعراء أنفسهم كانت كثرتهم من الموالي الذين نبذوا التقاليد الخلقية الاسلامية والعربية ، إما بعامل الزندقة والشعوبية ، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق .

ويرى الدكتور شوقي ضيف أنّ كثيراً من هذا الغزل لم يصور حقائق واقعة ، إنما كان يصور حقائق خيالية من بعض الوجوه ، إذ كان يُراد به الى التندير والفكاهة في مجالس هؤلاء المجان الخليعين ، فهم ينظمونه ويتداولونه للضحك والدعابة ، وكأنه يشبه من بعض الوجوه ما قد يجري على بعض الألسنة في عصرنا من نكت جنسية ، ولكن الدكتور شوقي ضيف يستدرك فيقول : وليس معنى ذلك اننا نريد أن ننكر الغزل المكشوف ، إنما نريد أن نلفت الى أن كثيراً منه صنع للتندير والفكاهة .

وشتّان بين الغزل الصريح في هذا العصر عند مطيع بن إياس وأبي نواس وأضرابهما وبينه في العصر الأموي عند عمر بن أبي ربيعة والأحوص وأمثالهما ، إذ كانوا يحتفظون بغير قليل من الوقار والحشمة ، أما مطيع وأبو نواس وبشار وغيرهم فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خروجاً يشبه أن يكون ثورة ، فهم يتحدثون عن غرائزهم النوعية في غير تعفف ولا حياء ولا كرامة ، وقد استحدث كثير منهم – باستثناء بشار – ضرباً جديداً من هذا الغزل الصريح ، وهو الغزل بالغلمان ، وهو يصوّر ما انتهت إليه حياتهم من الفساد ، لكثرة الرقيق ، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان لا يرعوون ولا يستحون . ومن امثلة الغزل الصريح قول ربيعة الرقي (ت١٩٨هـ) :

الحبّ داء عياء لا دواء له ... إلاّ نسيم حبيب طيّب النّسم

أو قبلة من فم نيلت مخالسة وما حرام فم ألصقته بفم

وكان يجري بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف ، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقاً شديداً بالقياس الى عصر بني أميّة ، إذ كان يتسع حتّى يشمل بوادي الحجاز وحتّى تجري أسراب منه في مكة عند أمثال عبد الرحمن الجشميّ الملقب بالقس لنسكه ، وفي المدينة عند أمثال عروة بن أُذينة . ومن أعلامه في البوادي قيس بن ذريح وجميل بن معمر العذري ، حيث نجد الحبّ النقي الطاهر الذي يملك على الشاعرعواطفه وأهواءه كلها، حتَّى ليصبح ضرباً من الهيام القوي الحاد الذي يدفع الشاعر الى التغنّي بمحبوبته في شعر عذب لا يخدش حياء ، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدّة الظمأ الذي لا ينتهي . وطبيعي أن يضعف هذا التيار في العصر العباسي الأوّل الذي قلّما عرف فيه الشعراء العفة والطهر ، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجواري ثم بعن وضرب بينهم وبينهنّ حجاب صفيق ، فعاشوا يتعذبون بالحب ، وعاش الحب في قلوبهم قويّاً حادّاً ، ومن ذلك قول العباس بن الأحنف (ت١٩٤هـ):

أبكي الذين أذاقوني مودّتهم حتّى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدهم قد كنت أحسبهم يوفون إن عهدوا
لأخرجنّ من الدنيا وحبّكم بين الجوانح لم يشعر به أحد

والفرق كبير بين حرارة هذا الغزل العفيف والغزل المماثل له في عصر بني أُميّة عند قيس بن ذريح وأضرابه . فإنّ غزلهم يصوّر حبًّا جامحاً ، وكأنّ في صدورهم شواظ نار ، فهم يألمون كما لم يألم أحد، ألماً تعجز النفوس عن احتماله ، ألماً يعصف بهم كالسيل المندفع الذي لايترك لهم رويّة ولا أناة ، وإنمّا يترك لهم الحزن الممض والدموع الغزار . ومن أجل ذلك أخذ الغزل العذري يضيق مجراه في هذا العصر ، لأنه لا يبلغ من التأثير في النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف الأُموي ، وكأنّما أفسدت الحضارة هذا الفنّ ، فإذا هو يجري فيه التكلّف ولا يكاد يؤثر في العاطفة والشعور إلاّ قليلاً .

إلاّ أنه من الخطأ أن نضع حداً فاصلاً في هذا العصر بين الغزل العفيف والغزل الصريح ، ذلك لأننا نجد عند المصّرحين الذي لا يحتشمون ولا يتوقّرون ، والذين يعبرون عن الحب الجسدي حب الغرائز الذي لا يخلو من الفسوق والإثم أسراباً مختلفة من الحبّ المبرّح تجعلهم يقتربون أحياناً من أصحاب الحبّ العفيف ، فنجد عند بشار بن برد مثلاً كثيراً من الغزل الآثم ، ونجد بجانبه غزلاً فيه لوعة وألم وسهاد ، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام ، على نحو ما يلقانا في أشعاره لصاحبته عبدة ، ومثله أبو نواس في أشعاره لجنان جارية الثقفيين ، وتضرب مثلاً من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصوّر كيف كان الحبّ أحياناً يستأثر بكل مافي قلوبهم من هوىً وعاطفة ، وكيف كانوا يتعمّقون دقائقه تعمقاً يفضي الى كثير من السّعة والجمال ، وهو هذه القطعة التي أنشدها صاحب الأغاني لآدم بن عبد العزيز حفيد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، وكان آدم خليعاً ماجناً في أوّل أمره ، وفيها يقول لصاحبة له :

أحبّك حبيّن : لي واحد وآخر أنَّك أهل لذاك
فأمّا الذي هو حبّ الطباع فشيء خصصت به عن سواك
وأمّا الذي هو حبّ الجمال فلست أرى ذاك حتّى أراك
ولست أمنّ بهذا عليك لكِ المنّ في ذا وهذا وذاك

وممّا يمكن أن نلاحظه على الغزل عامة في العصر العبّاسي هو أنّ الشعراء استخرجوا كثيراً من المعاني في غزلهم ، فقد كان عقلهم خصباً يقتدر على تشعيب المعاني وتحليلها واستنباط كثير من دقائقها . وكثير من غزلهم لا يصوّر ذلك فحسب ، بل يصوّر أيضاً حسّهم المترف الدقيق وشعورهم الرقيق المرهف ،

وكذلك نلاحظ كثرة العبارات الليّنة في غزلهم ، وهي شيء طبيعي مردّه الى حياتهم المتحضّرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلهم الى الجواري المغنيات ، ولم يكنّ متبديّات إنّما كنّ متحضرات ، فكانوا يختارون لهنّ اللفظ السهل البسيط الذي يلمس القلوب لمساً بدون أي حجاب ، ونلاحظ ظاهرة أخرى هي شيوع الأوزان المجزوءة والقصيرة في هذا الغزل ، وكان ذلك بسبب الغناء الذي دفع الى ظهور أوزان جديدة هي المقتضب والمضارع والمتدارك ، وظاهرة أخرى تقترن بالجواري اللائي كان ينظم فيهنّ الشعراء ، وذلك أنّ كثيراً منهنّ كنّ مثقفات يحسنّ صوغ الشعر ونظمه ، فكان الشعراء يراسلونهنّ ، وكانوا أحياناً يفضون إليهنّ ويتطارحون معهن شعر الغزل ، وقد أشاع هؤلاء الجواري الشواعر كثيراً من الظرف والرّقّة في الغزل العباسي ، إذ كنّ يعجبن باللمحة الدالة والخاطرة الدقيقة .

الوصف

غرض تقليدي من أغراض الشعر العربي المعروفة ، ويعدّ عماد الشعر ، يقول ابن رشيق القيرواني ((الشعر إلّا أقلّه راجع الى باب الوصف)) ، وذلك أن أغراض الشعر العربي الأخرى هي وصف أيضاً كالمديح والهجاء والرثاء والغزل الخ ، ففنون الشعر جميعاً إذن تدخل ضمن الوصف ناهيك عن غرض مستقل هو الوصف .

وكانت للوصف غلبة في الشعر العباسي ، إذ توسّع الشعراء فيه فتفننوا في وصف المشاهد فوصفوا الطبيعة والرياض والأزهار والأنهار والطير والحيوان ، بل راح الشعراء يصفون كل ماتقع أعينهم عليه ، فهذا أبو تمّام مثلاً على عادة الشعراء العباسيين الذين أكثروا من وصف الأمطار والسحب ، يصف لنا سحابة ممطرة بقوله :

ديمة سمحة القيادة سكوب مستغيث بها الثرى المكروب
لوسعت بقعة لاحياء نعمى لسعى نحوها المكان الجديب

ولم يكن وصف الطبيعة قبل هذا العصر فناً مستقلاً ، بل كان كثيراً ما تبدأ به القصيدة ، ثم ينتقل الشاعر الى الممدوح أو الى غرض آخر . وقد استطاع هذا الفن في هذا العصر أن يستقلّ بذاته عند بعض الشعراء مثل ابن الرومي والبحتري والصنوبري وغيرهم .